الواردات والمواقف
من حضرة الإلـهام

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي الله عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون
الإدريسي الحسني

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على الفاتح الخاتم و آله و صحبه و سلم تسليما

الواردات والمواقف من حضرة الإلهام

بسم الله، والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وعلى آله وأصحابه وكل من تعلق بصدق جنابه إلى يوم الدين، وبعد فهذه وَاردات من حضرة الإلهام، أكتبُها طبق ما وَردت لذوي الأفهام، فمن وافقته فليقتطف من وردها، وإلا فليدع ما لا يوافقه وما عليّ فيه ولا عليه فيَّ، فكل شخص مرهون بما جنته نفسه، وإني أصرح على رؤوس الأشهاد بأني أشهد أن لا إله إلا الله، محمّد رسُول الله عليه السّلام، وَمتمذهب بمذهب الأشعرية، وإن صدر من الوارد مَا ينافي المذهب فإني أتبرّى .. عليَّ بعد هذا فما ينافي ... وإثمه ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الوارد الأوَّل: قال لي ما نصه من سر البسملة

لقد جلت جولة فيما ذكره أهْل العلم بالمناسبة بين الحروف والكلمات وَنحوها، فرأيت فضاء متسعا، وجوا خاليا من الصقور الخاطفة لطيور الأفكار الجالية فيه، فلا سيطرة عليها فيما تجرأت عليه من ذكر المناسبات التي تصرح بها في هذا الميدان الذي استحلى الجولان فيه كل ذي شقشقة يهذي بكلامه، وَيظن الواقف عليه بأنه يهدي بذلك على وفق بلغت إليه من ذلك سوابق أفهامه، ويعد ذلك من الفتوحات الوهبية والمعارف الخفية[1]، ولعمري أن تلك المناسبات مما لم يرد عن منبع السر عليه السّلام إنما هي من أبواب يفتحهما المتكلم بها ليصل إلى ما يريد أن يبسطه من كلام يبهر السّامع، فيقدر قدر المتكلم به، ويكبر بين عينيه ذلك، مع أن ذلك لا ضابط يضبطه، ولا حد يحصره، إلا ما أحدثه بعض من أرادَ المناضلة عما تكلم فيه من فحول المتصوفة، قاصدا بذلك تنوير الأفهام، بما يوحيه إليه وارد الإلهام، فيرتقي الفهم مما يصوره من تلك المناسبات إلى إدراك حقائق لا تدرك بمجرد التأمل، ولكن التسور على تصور ما لا يدرك من الحقائق في الجملة لا يكون إلا بمثل ذلك.

---

[1]- من المعلوم أن العلوم كلها من حيث الأصل لدنية وهبية، ولكن بعضها يتحصل بواسطة التعلم والأخذ عن العلماء والفقهاء، وهذا النوع لا بد فيه من البحث، مع الجد والمثابرة والاجتهاد، وهو الذي يسمى العلم الرسمي الكسبي، وبعضها ينفتح في سر القلب المنور من غير سبب مألوف من خارج إلا سبب التقوى والإخلاص في العمل، إذ التقوى مدعاة للعلم والمعرفة. قال الله تعالى: "واتقوا الله ويعلمكم الله". وهذا العلم هو عبارة عما اشتملت عليه قلوب أهل الله الخلص من المعارف وحقائق التوحيد، وغوامض العلوم اللدنية التي لا تطيقها جل الفهوم البشرية، وهي من أسرار الله التي تتجلى أنوارا وفهوما وأذواقا ومشاهد في قلوب العارفين، كما أنها لا تنال بحيلة ولا اكتساب، ولا تؤخذ من دفتر ولا كتاب، وإنما تفاض من حضرة الكمال، بمحض الفضل والنوال، وقد أشار إلى هذا بعض العارفين بقوله:

قلوب العارفين لها عيون ... ترى ما لا يُرَى للناظرين
وأجنحة تطير بغير ريش ... إلى ملكوت رب العالمين

وباعتبار هذا تخف المسؤولية المتوجهة على المتكلمين بهذه المناسبات المحدثة، حيث تحدثوا بها ولا دليل عليها سوى التشدق والتوطية لما يريدون بسطه كما أشرنا إليْه، وإذا نظرنا إلى جلالة المتكلم بذلك من الفحول يمنعنا الحياء من التصريح بما ذكرناه، ولكن الجرءة التي قادتنا لما بسطناه جاريناها لمجاراة من جرى في ميدان الإنكار على القوم وجعل ذلك غاية ما خاضوا فيه، مع أنهم أعْلى مقاما عما رموهم به من المجازفة في الهذيان، وما دروا أنهم قاصرون عن مدارك هؤلاء القوم، فإن ما ذكروه من المناسبات قصدوا به ترقية السّامع والمطالع، وهو وإن لم يكن محصورا محدودا باصطلاح في سائر الفصول والوصول المذكورات في مسطوراتهم، فلا يبعد أن يعدّ من قبيل الفنون المحدثة مما له اصطلاح وما لا اصطلاح له.

ولا يأبى الذوق السليم بعض تلك المناسبات، فَانجلى لك من هذا الغبار الذي أثرناه في ميدان هذه المقدمة مع مَا آثرناه من الاعتذارات عن القوم أن التسليم أوْلى[1]، واستحسان ما يستحسن من ذلك لا يقبله إلا مَن كان له أهلا، وَماذا يلزم الوارد من الورد الأحلى إذا قال إن الباء من البسملة متضمنة لما جرى على الألسنة من قولهم: بي كان ما كان، وبي يكون ما يكون، أو يقول ما لم يقولوه من أنها إشارة إلى قول الرسول عليه السّلام: بربي عرفت كل شيء، وحقك لا يلزمه شيء، وقس على ذلك، والله أعلم بما هنالك.

الوارد الثاني: قال لي ما نصه من سر البسملة أيضا

لقد تشدّق كثير ممن خاض في أسرار الحروف بذكر بعض المناسبات المنوطة بهيأة الحروف الرسمية من استقامة واعوجاج، وَقصر وطول، وتمطيط وانحناء، وإهمال وإعجام، ذاكرا أن ذلك اقتضته الحكمة المنوطة به عند الوضع الحرفي وتعلق الفلك وَدورانه بذلك على وفق الحكمة الأزلية، وفي ذلك أسرار باطنية أكثر مما هوّل به هؤلاء المتشدّقون.

ونحن لا ننكر الأسرار المنطوية تحت ذلك بإبداع المبدع الحكيم في إيجاد ذلك، من أول مرة إلى آخر دورة من الفلك وآخر ظلمة في الوجود، وإنما نقول تلك المناسبات لا دخل لها في أصل الوضع والأسْرار التي تستنبط من ذلك، إنما هو من قبيل التقولات وَالتهويلات المستودعة في حيز التبجح على الأقران، بادعاء التحصيل على سر الفعل والانفعال، وَذلك مجرد أوهام وتحكمها في أنفس المنفعلين الذين يصدقون الوهم ويقدمونه على اليقين، ومع ذلك فنحن نستحسن بعض تلك المناسبات في غير باب التأثير بها، وإنما التأثير لله وَحده، وعبرة بما يصادف من الانفعالات الموافقة لما ذكروه في ذلك.

---

[1]- طريق القوم قائم على التسليم، وهو أقل ما يمكن أن يعتقده المرء في هذا الصدد، لأن التسليم للقوم بعد ثبات صدقهم وصدق ما روي عنهم هو النجاة والفلاح، ومن هذا القبيل قول الإمام الغزالي رضي الله عنه: من لم يكن له نصيب من علم القوم أخاف عليه سوء الخاتمة، وأدنى نصيب منه التصديق به والتسليم لأهله، وأقل عقوبة من ينكره أن لا يرزق منه شيء. إهـ. وفي الصدد نفسه يقول بعض العارفين: التسليم ولاية، والإعتقاد عناية، والإنتقاد جناية، فإن عرفت فاتبع، وإن جهلت فسلم.

ولعمري من يقول إن معانقة الألف باللام في لام الألف، لم يكن إلا للإشارة لكذا، أو صدر عن كذا، ونحو ذلك لهاذ بالذال المعجمة غيرها بمهملها، وإنما يريد أن يفرغ علمه الذي اطلع عليه باستطراد مفروغ في مثل تلك القوالب، ولو عقد بابا في ذلك العلم بالخصوص من غير تهويل بتلك الخزعبلات لكان أنفع للسامع وأجمع للفوائد للمطالع، ولستُ بمنتقد على علماء الرسم في الحذف والإثبات والزوائد الرسمية في الصحف التي تشير للقراءات والروايات ونحو ذلك، وإنما أنكر على من يقول إن الحرف الفلاني لم يكن على هيأته إلا للسر الفلاني من غير الصورة التي تميزه من غيره، كنقطة الخاء من أعلى، وَالجيم من أسفل.

أمّا ما كان للإشارة الرسمية، فإني أستحسنه كثيرا، ألا ترى إلى الخليل كيف يقول: ما طولت الباء من البسملة إلا للإشارة لهمزة الوصل المصدر بها الاسم قبل دخول الباء في أوله، فحذفت الألف وطولت الباء إشارة إليه، فإن مثل هذا من أنفس المقالات في الرسم، فهذا لم يكن عن أسْرار وهمية وحكمة سرية، ولكن الرسم من أجل العلوم وأنفسها، بالنظر لما تعلق به من كلام الحق.

ولعمري أن من يقول الميم في اسم محمد صلى الله عليه وسلم بمنزلة الرأس، والحاء بمنزلة اليدين والميم بمنزلة البطن، والدال بمنزلة الرجلين لمبدع في المناسبة، ولكن لا يوافقه كل الخطوط الرسمية، ولو تتبعنا المناسبات طبق الرسم لقلت في هذا ما هو أعجب طبق ما أرانيه بعض الأعيان، فقال إن اسم محمد صلى الله عليه وسلم يقرأ ظهرًا وبطنًا إذا كُتِبَ هكذا ، فبالله عليك إذا نظرت إلى هذه الصورة من غير أن تعرف الميم والحاء من صورة الدال ألستَ تقول في العكس بأنه محمد عليه السّلام.

ولو ادعينا أن لذلك سرا لصدّقَنَا فيه كل ذي وهم يصدق ما يتجلى له في مرآة مخيلاته من المغربات، ومن العجب أنه يكتفي بالتصديق بتلك الخزعبلات من غير أن يقف على أثر من الآثار التي يحسبها من أبدع الأسرار، فلا تلتفت إلى ما هو من هذا القبيل في باب التصرف بالحروف اعتمادا على مثل هذه المناسبات، والله الموفق.

الوارد الثالث: من نفس البسملة أيضا

لا غرابة إذا أنكرت خواصّ أشكال هذه الحروف الهجائية من حيثية الهيأة الرسمية من غير الخاصية المودعة في تمييز حرف من حرف، وأثبت صحة الأشكال الطلسمية الدالة على حروف مرموز بها لمعان موافقة للطلسم الموضوع باقتران حركات ملكية توجد عندها الخاصية لا بها، خلافا لاعتقاد السّاحر الذي استعان بقوة وهمية، أو غيرها من القوات الروحية، وإنما السر عندي في الذكر أو العدد المخصوص المنوط بتلك الحروف، أو بوضع الحرف باستحضار معنى مرموز علَيْه عند الوضع، كمن وضع حرف الباء من البسملة، واستحضر عند وضع نقطتها خاصية خصوصية، فإن الخاصية تتحقق بإذن الله.

وليس ذلك من المصادفة، وإنما هو من باب وجود المسبب بوجود السبب، وليس هناك فاعل سوى الله بديع السماوات والأرض، ولا شك أن الأشكال لها خواص منوطة بها أودعها ذلك المدبر الحكيم، ولكن لا يقف على التصرف بها إلا الخصوص من الخصوص، وكم من طارق لهذه الأبواب وقف بعد الخوض في علم سر الحرف وعلم الوفق ونحوهما من علوم السيمياء متحيرا في الطريق الموصلة له للتصرف الذي طالما تلهف عليْه، وعلى من يوقفه عليه بالقدم فلم يحصل سوى الدعوى العَريضة، والأماني المستولية على الأنفس المريضة، ذلك شأن الخائضين في هذه الفنون معَ تبجُّح بمعرفتها، وبخل تام بالمفاوضة مع الغير فيها، اعتمادا على أنها من الأسرار التي يجب كتمها.

وبذلك تجد النفوسَ متسوفة للاستطلاع على ما خفى عليها من ذلك حين لم تصل إليه، وترى أهل ذلك مصرين عليه مع التبجح التام ومنعهم من الخوض معهم في ذلك بين الخواص والعوام، فبمنعهم تزداد النفوس تشوقا للخوض فيها، وتتوق دائما إلى من يطلعها على ما خفي عنها من ذلك، وأحب شيء إلى الإنسان ما مُنع، والعجب كل العجب وثوق نفس بعض المولــوعين بذلك بما يتحدثون به وما يحدثهم به الغير بحيث لا ينشلهم من ذلك الوثوق ثقة ولا مستراب، بل لا يرجعون عن معتقدهم من غير تحقق حاصل لهم بما يبلغهم على لسان الغير أو يحصل لهم مصادفة إلا بعد امتحانات وخيبة المسْعى، ومع ذلك لا ينفكون كل ذلك تبعا لهوى النفوس المجبولة على تضحية صاحبها بما أمكنها من أنواع التهلكة التي تعشقها الأمّارة.

ولعمري إن الرجوع إلى الله في السر والعلانية لهو مفتاح أبواب الخلافة في الكون، حتى يصير هذا الراجع يقول للشيء كن فيكون بربه، ولهذا قال الشبلي: بسم الله من العبد بمنزلة كن من الحق، والله الموفق.

علم الدور

هذا العلم ذكر اسمَه الشعراني في كتابه المسمَّى إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العاملين، وَأورد فيه أنه إذا كان كل مولود يولد على الفطرة ولكن أبواه يهودانه أو ينصرانه الحديث[1]. فمن أين جاء كفر الأوّل، وهو ينزل العقل هنا من حيث فكره منزلة الأبوين في كون هذا الشخص قد أخرجه نظره من فطرته إلى إثبات الشرك، مع أن الشرك عدم، وقد سنح لي أن أقول حيث كان الشرك للولد يأتيه من أبويه، والأبوة والبنوة متلازمان لا يتعقل انفكاك واحد منهما بدون الآخر جاء الشرك للأول من نفسه المستولية على عقله المعقول بقيدها، بعد أن كان في حيز الإطلاق الذي لا يمكنه أن يصرح بالشرك، لأن الشريك معدوم لا يتعقّل مع واجب الوجود، فَالفطرة السّالمة دائما لا شرك لها، ولذلك لم يقل في الحديث الشريف أو يلقنانه الإيمان، لأنه إذا ترك وَنفسه لاهتدى إن كان من ذوي العقول إلى مقتضى فطرته، فالذي جنى على الولد من حيثية الشرك هما الأبوان، فهما وَإن كانا السبب في وجوده فهما السبب في عدمه، ولذا قال ذو المعرة[2]:

هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد[3]

ولكن العدم شر محض، والوجود أغلبي الخير[4]، فشكر المتسبب في الوجود واجب، فَالمعري ومن على شاكله ملوم من هذه الحيثية، لكون الوقوع والنزول لا يرتفع، وَترك شكر المتسبب كفر نعمته، غير أن الشرك الوَاصل للوَلد قاض على الأبوين بجزعهما عليه، لأنه منهما انفصل، فعذاب المشرك في خاصة نفسه، ومن جهة وَلده فيه زيادة تنكيل به من أي جهة كانت، إلا وجهة المشرك ففيها غاية الأسف لأنه إن كان ولده مسلما حزن على ما فرط فيه،

---

[1]- إشارة للحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما من مولودٍ إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسبون فيها من جدعاء، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم. إهـ .. أنظر صحيح البخاري (كتاب الجنائز). باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ رقم الحديث 1374.

[2]- المراد به الشاعر العربي أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي، المشهور بأبي العلاء المعري، ولد في معرة النعمان بسوريا، بين حماة وحلب، عام 363 هـ. وكان نحيف الجسم، أصيب بالجدري صغيرا، فعمي في السنة الرابعة من عمره، وقال الشعر وهو ابن إحدى عشر سنة. قال عنه ياقوت: والناس مختلفون في أبي العلاء، فمنهم من يقول كان زنديقا، ومنهم من يقول زاهدا متعبدًا، يأخذ نفسه بالرياضة والخشونة والإعراض عن أعراض الدنيا، توفي سنة 449 هـ. أنظر ترجمته في الأعلام للزركلي 1: 157.

[3]- البيت للشاعر أبي العلاء المعري، وقد أوصى قبل وفاته أن يدفن عند الممات في بيته، ويكتب البيت الشعري المذكور على شاهدة قبره، فنفذ أصحابه الوصيتين، الدفن والكتابة.

[4]- أجمع المحققون من أهل العلم على أن الوجود خير محض والعدم شر محض، والدليل عندهم في هذا القول هو رجوع كافة الكمالات والفضائل والمحاسن إلى الوجود، وكون العدم أساس جميع النقائص والمعاصي والمصائب، ومن مقالاتهم في هذا الصدد أيضا قولهم: الأهوال شرور والشرور أعدام.

وإن كان والده مشركا حزن ولده على ما فاته من خير والده، وإن كانا معا مشركين، فالبلاء والويل والثبور لهما، فالذي جاء على الفطرة هو المؤمن، ولذلك كان من أسماء الحق المؤمن، فهو سبحانه لم يلد ولم يولد، فالمؤمن على الفطرة دائما، ولذلك لما نوديت الأرواح في عالمها قبل أن تقيد بالنفس وتدخل لسجن الجسم يوم ألست بربكم. قالوا: بلى[1]. لأنها على فطرتها عارفة بربها، وَقد حجبت في عالم الحس حين عقلت بنفسها، فلو بقي العقل مطلقا عن قيدها لنفى الشرك، لأنه لا يقبله البتة، لما قام لديه من الدليل القاطع والبرهان الساطع بالعلم والمعرفة التي جبل عليها في فطرته، فلا يتصور الشريك، لأنه لو كان هناك شريك ما وجد الولد ولا الوالد بمقتضى لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا[2]. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

[1]- سورة الأعراف، الآية 172.
[2]- سورة الأنبياء، الآية 22.